الطريق إلى السبورة

(متتالية مدرسية قصصية)

مروة سيف النصر

«دار روعة» للنشر والتوزيع

"الطريق إلى السبورة"

بقلم/

مروة سيف النصر

غلاف / عبدالرحمن حافظ

الطبعة الأولى ٢٠١٣

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

المدير العام / هبة الشرقاوي

موبايل : ٠٠٢٠١١٤٠١٧٨١٤٤

darrawaa@yahoo.com

رقم الإيداع:٥٣٢٠/٢٠١٣

الترقيم الدولى:

978-977-6411-28-9

الطريق إلى .. السبورة

إهـــداء .....

إلى أول من احتفلت بى بعينيها .. أمـــى

المحتويات

سبتمبر

زمان عندما كان سبتمبر يأتى فى الخريف حين يميل الجو إلى البرودة قليلاً وشمسه تُطِلّ من غير حرارة ورائحة الجوافة تنتشر فى مطلعها تنبئ عن بداية الدراسة.. تتسلل من الراديو إلى أسماعنا أغنية «بالسلامة يا حبيبى بالسلامة.. بالسلامة تروح وترجع بالسلامة» معلنة تأخُّرَنا عن طابور الصباح، فنربط الكرافيتات بسرعة مهرولين على السلالم. هكذا كانت أيام المدرسة.. فلكم انتظرت هذا اليوم وصفّق قلبى فرحًا كلما اقترب موعد التحاقى بالمدرسة، فقبل ذلك وكلما مررت من أمامها تَمَلَّكَنى الفضول لمعرفة ماذا يحدث خلف هذا السور، وكنت أشد قامتى القصيرة لرؤية العالم السحرى المختبئ خلفه فلا أرى شيئًا.. إلا عندما تنفتح أبواب تلك القلعة محدثةً صريرًا قويًّا فيتدافع الأطفال للخروج حاملين حقائبهم التى تجبرهم على الانحناء ولكن لا توقفهم أبدًا عن الجرى.

انتصف سبتمبر وشعور الترقُّب الجميل يزداد بداخلى، ولكنه يختلط أحيانًا بشعيرات من قلق، وجاء اليوم وتركت يدى كفّ أمى بتردُّد ولامسَت أقدامى الصغيرة أرضَ القلعة العجيبة وملأنى الفخر

فشعرت بأننى ازددت طولاً، وكَّان أول ما استقبلنى فيها رائحة التراب المبلَّل الممزوج بالياسمين والضارب فيه جذورٌ لشجرٍ عتيق يحكى لى تاريخًا لم أعِشْه.. وما هى إلا خطوات خطوتها بين عدد من الصغار حتى أُغلِقَ الباب خلفنا.. وحيل بيننا وبين أمهاتنا.. فابتدأ القلق يتنفس داخلى بحرِّية وحملقت إلى الباب، فقد كان أضخم ممَّا كان عليه من قبل.

المكان يسوده الهدوء بعض الشىء مع انطلاق صرخات متفرقة من أطفال احتجُّوا على اختفاء أمهاتهم المفاجئ.. سخرت بداخلى من موقفهم ونسيت أننى مثلهم ورحت أتجول بحذر وسط التلاميذ خوفًا من أن يطأ أحدهم حذائى اللامع أو يتسخ جوربى الأبيض.. واتبعت مَن هم أطول منِّى قامة وسرت خلفهم هائمة مستكشفة.. حتى وجدتنى فى فناء صغير تظلِّله أشجار التوت ولا أثر فيه للشمس.. أغرتنى فروعه الدانية لتسلُّقها.. وقبل اكتمال الحلم انطلقت صفارة يصحبها صوت جهورى:

كله يجمع لطابور الصباح.

فنظرتُ حولى وقد تَشَتَّتَ الجمع سريعًا، كلٌّ يجرى فى اتجاه

والصوت يكرِّر: كله يجمع للطابووووور.. الأولاد اللى فى الحوش الخلفى.. كله يجى هنا.

وازداد الأمر تعقيدًا بالنسبة إلىَّ، وتاه منى الرفاق الطوال الذين لا يعرفوننى ولا أعرفهم... فقررت أن أقف مكانى وأصيب السلامة، فمن أدرانى لو تحركت هذه المرة إلى أين سيذهب بى الطريق؟!.. وكلما تكرر النداء شعرت بأن الأمر له علاقة بى، وفى لحظة يأس وانحدار إحدى الدمعات جاء صاحب الصوت وهو ما زال يردد نداءه حتى وقف أمامى مباشرة ينظر إلىَّ وأنظر إليه، ثم خفض صفارته وقال لى: أنا مش بقول الأولاد اللى فى الحوش الخلفى ييجوا، ونظرت إليه باندهاش محدِّثة نفسى: آسفة ، أنا لا أعرف مَن الخلفى هذا، ثم تنهد فى ضيق ومد يده إلىَّ.. آه، هذه الحركة أعرفها جيدًا يفعلانها أبى وأمى عندما يريدان الإمساك بيدى، وانطلقت نحو اليد الممدوة، وتمسكت بها، وصار بى صاحب النداء، حيث البراح والازدحام ووضعنى مع أناس من نفس طولى تقريباً، وقال وهو ينحنى بنبرة طيبة هذه المرة: خليكى هنا متروحيش هناك تانى، فاقتنعت برأيه وتجولت هذه المرة فى المكان بعينى فقط.. فالفناء الأمامى كما يسمونه متسع جدًا تملؤه الشمس، ويتوسطه العلم، ولا يكدِّر صفو رحابته

سوى تلك الغربان التى تصطف على سور الفناء بشموخ كأنها تهيئ نفسها للطابور وتحية العلم.. وكان هناك مبنيان يشرفان على ذلك الفناء فى أدوارهما الأرضية حجرات صغيرة بأبواب هلالية جميلة خرجت من أحدها سيدة نحيفة وأغلقت الباب خلفها سريعًا، ولم ألحق مشاهدة محتوى الغرفة.. وعلى الجانب الآخر فى الطابق الأرضى أيضًا قاعة متسعة بلا أبواب وعلى جدرانها دقت ألواح خشبية شاحبة جعلت المكان يشبه أكواخ الصيادين.

وجمعنا المعلمون والمعلمات لطابور الصباح بحركات آلية غير محتفين بنا حتى مرت أمامنا مدرسة ابتسمت لنا وهى تسرع فى السير، عرفت فيما بعد أنها أبلة أمانى مدرسة الألعاب.. وكانت الشمس أكثر المرحبين بنا، ابتسمت لنا بحرارة وأرسلت من إحدى غمازتيها شعاعًا فضيًا داعبت به وجوهنا المنمنمة فى حين أن المعلمات اختبأن من ضوئها الساطع تحت المظلات رافضاتٍ مداعباتها، يرمقننا من حين لآخر بلا مبالاة.. معظمهن شابات إلا سيدة عجوز تقف خلف نافذة بأسيجة من حديد تضع على رأسها «إيشارب» مثلثًا تعقده عند رقبتها فى غيظ كما كانت تفعل الممثلات فى أفلام الخمسينيات عندما يهربن ليلا.. عينها تتجول بين الأطفال بضيق

غير مبرر كأنها تقول: «كل سنة أولاد جداد، إنتو ما بتخلصوش؟». والصغار ينظرون إليها باندهاش.. وفى تلك اللحظة التى صوبت فيها السيدة العجوز ناظريها إلينا زحفت فى السماء بعض السحائب الرمادية فغيبت الشمس عنا قليلاً أو قد تكون هى من انسحبت، لا أدرى؟

وسط هذا المشهد الخريفى القديم كانت عيناى تدور فى المكان أبحث عن ماما نجوى أو عمو فؤاد أو كوكى كاك أو أى أحد له علاقة بأحجامنا الصغيرة، فلم أجد سوى المتجهمين فى الأرض، ولكننى لم أفقد الأمل فقلت لنفسى: الحياة لا تنتهى فى الفناء.. جاء وقت صعودنا للفصول بمصاحبة موسيقى المارش العسكرية وطبلة الطابور المدوية التى زادت من نسبة الأدرينالين فى دمنا فتسارعت ضربات القلوب إلى أن وجدنا أنفسنا داخل الفصل.. كان واسعًا ورطبًا من أثر المياه، يبدو أنه مسح بها للتو، وفى مقدمته لوحة سوداء بحجم الحائط كتب عليها التاريخان الهجرى والميلادى، ودخلت سيدة بيضاء ضحوك فسرى فينا شعور من الارتياح وقالت فى ظرف:

اقعدوا بسرعة يا ولاد أبلتكو جاية..

جلس من استوعب ذلك.. حينها دخلت مدرسة الفصل

فالتهمت ما تبقى من آمالى.. إنها سيدة السياج التى دخلت مسرعة وأغلقت باب الفصل خلفها فلم يتمكن أحد من أن يأخذ قرار الهروب، هذا آخر ما كنت أتوقعه..

قيام.. أول كلمة قالتها لنا مدرستنا التى كانت تُدعى أبلة نجية: فلم تجد أى رد فعل فرددتها بالعامية: «قوموا اقفوا»، فوقفنا فورًا فأتبعت: اقعدوا، ثم نظرت إلينا بتمهل والذهول يتملكنا تصوب لنا عينيها الزرقاوين..

لم أكن أعرف أن العيون الزرقاء التى أحببتها فى عرائسى ممكن أن تخيفنى يومًا... وهنا دخلت دادة فاطمة للمرة الثانية:

صباح الخير يا أبلة نجية، فردت عليها التحية بحروف مضغمة وأخذت من يدها دفترًا فتحته ووضعت نظارتها على أنفها تتبادل النظرات بين الدفتر والطلبة منادية الأسماء والجميع يرفع يده باستغراب من أخبرها بأسمائنا بتلك الدقة، وهل يقف الأمر على الأسماء ؟ فيا له من حظ، نحن فقط ومن بين كل فصول المدرسة تكون مدرستنا ذات فم لا يحتوى إلا على سِنَّين طويلتين ووجه هدله الزمن وفستان كحلى سادة وحذاء رياضى أبيض تمط قامتها بأقصى ما تستطيع لِتُحدث التاريخ على السبورة.

نظرت فاطمة للأفواه الفاغرة وقالت بلكنة ريفية طيبة:

إيه يا كتاكيت، مالكم؟ دانتو حظكو حلو.. أبلة نجية حتخليكو شاطرين أوى.. وأعاد لها صدى الصوت جملتها كاملة.. فمسحت مكتب المعلمة وفرشت عليه مفرش «كاروه» بنى محروق، ولكسر الوجوم اتجهت خارجة من باب الفصل وهى تقلد مشية وصوت القطار توت توووت توت.

فضحكنا لأول مرة منذ دخلنا من باب المدرسة.. دادة فاطمة كانت تذكرنى بشخصية فردوس محمد فى الأفلام القديمة، ضاحكة رغم رقة حالها، تحب الأطفال وهى لم تنجب، ها وقد أصبحنا وحدنا نحن وأبلة نجية، ومرت الحصص التى ملأتها جميعًا بوجودها، تعلمنا كتابة أسمائنا بصبر قليل، فمن تعّلم بسرعة فقد أراح واستراح ويعود إلى تختته ملك زمانه، أما من لم يسعفه الفهم فيكفى أن تنظر له من خلف نظارتها فيعود طفلاً فى الثانية من عمره يبلل نفسه رعبًا، ولم يوقف هذا العرض التجريدى إلا رنين الجرس فى الحادية عشرة ليعلن عن الفسحة، فجمعتنا صفين، وتقدمتنا لننزل الفناء ونفوسنا تمتن لصاحب هذا الاختراع العبقرى (الفسحة)، بارك الله فيه..

وبعد وقت قصير رن الجرس مرة أخرى بإزعاج فانصرفنا لفصولنا، وسار الصوت الحاد للجرس هو الموسيقى التصويرية والرابط الذهنى القوى لرائحة الحصص بدايتها ونهايتها، وعند الواحدة كانت الرنة الأخيرة وانتهى اليوم الأول فهرولت السيقان نحو البوابة التى فتحت أخيرًا ولُذنا بالفرار عائدين إلى البيوت.

اليوم الثانى

فى اليوم الثانى فاجأ التلاميذ معلمتهم باستضافة أفراد من عائلتهم، كلٌّ فى تختته، يحشرون أنفسهم فيه بصعوبة.

بدت الدهشة جلية على وجهها الذى تراجع لونه ولم تلبث أن لملمت شتاتها وأرخت نظارتها على أنفها ونظرت للجمع باستنكار: صباح الخير.. خير إن شاء الله؟ أحد الآباء: «لا، أبدًا، الأولاد مستغربين المدرسة قليلاً وسنجلس معهم اليوم فقط لنشجعهم»، وبعد صراع بين رغبتها فى الصراخ فى وجههم ومحاولتها التزام الهدوء المصطنع قالت: «الكلام ده ما ينفعش، لازم يعتادوا على المدرسة من دون تدخلكم.. لو سمحتوا اتركونى معهم، إنها مسئوليتى أنا». ولما رأت بعض الوجوم استعارت ابتسامة ممطوطة : لا تقلقوا، فشعر الآباء بالحرج وتبادلوا النظرات فيما بينهم و لم يكن أمامهم إلا الانصراف تباعًا مُسَلِّمين أمرهم إلى الله وهم يُقَبِّلون أولادهم ويطمئنونهم ،إلى أن همت إحدى الأمهات بالانصراف فانطلقت سارينة إنذار من طفلة كانت تكتمها من الأمس وأخرجتها احتجاجًا اليوم، فتوجهت لها أبلة نجية بحزم: اتركيها تبكى ستسكت بمفردها، ولكن ما إن خرجت

الأم وهى تلتفت خلفها ناظرة لصغيرتها بشفقة حتى اندفعت الصغيرة فى صراخ وبكاء هستيرى فوقفت وهى تنظر إليها من ارتفاع:

اسكتى يا بنت.. فلم يجدِ معها ذلك، فصرخت فيها بأعلى طبقة صوت لديها «بس بطلى دلع»، فسكتت البنت و أنفاسها تتلاحق تنظر إليها بذعر وهى تشهق ، ولكن الأمر كان قد تجاوز البكاء وتأثير الشخطة أسكت لسان الفتاة، ولكن الأمور قد خرجت عن السيطرة حتى استوعبت أبلة نجية أخيرًا نتيجة صرختها عندما نظرت إلى الأرض تحت أقدام الفتاة:

إخص عليكى مقرفة ما تقولى عايزة أروح الحمام.. وعادت الفتاة إلى الاحتجاج بوصلة بكاء ثانية فخرجت من الفصل تستنجد صائحة: فين مامة البنت دى؟

اليوم الثالث

جلست هند بجانب أمها فى هدوءٍ وارتياح وظل الوضع هكذا أسبوعًا، وتدريجيًا كانت الأم تخرج من الفصل لبعض الوقت وتعود حتى تعودت الفتاة على غيابها،

ولكنها كانت تقف أمام باب المدرسة حتى لو نظرت إليها هند من نافذة الفصل وجدتها فتطمئن، وكانت المعلمة تلين معها حتى تهدأ، مرَّ الأسبوع الأول من الدراسة نواجه فيه مصيرنا، والذى قررت فيه هى أن تطور وسائلها التعليمية معنا، فانتقلت من مرحلة التبريق الأزرق من خلف النظارة إلى الضرب بعصاه شديدة النحافة بالغة الألم فتلقنا الحروف ثم تسألنا.. فهناك من يصيب ومن يخطأ يكن من المضروبين، والحمد لله لم أكن من الجزء المضروب حتى بدأت الأسئلة تزداد فى الصعوبة، وفى كل مرة كان ينضم أحد للمضروبين،

حتى جاء الدور علىَّ وحصل المحظور.. ونزلت العصا على يدى تزغرد من فرحتها..

لم أوقف البكاء يومها حتى صعدت سلالم بيتنا، وزاد النحيب أول ما رأيت وجه أبوىَّ فسألانى بعيون مرعوبة:

فيه إيه؟ وإيه اللى حصل؟

فرددت من بين الدموع: أبلة نجية ضربتنى....

الحصاد

أيامها كانت الخمس والأربعون دقيقة ببركتها ولا تمر الحصة هكذا، خصوصًا وقد انتقلنا لمرحلة الواجبات المدرسية، فكان منا من يؤثر السلامة ويعمل واجبه بمجرد وصوله للبيت، وقبل ما يخلع مريلته والقليل منا لا يهتم بعمل الواجب فيكون المشهد اليومى كالتالى:

أزيز صوتى كأداء نجمة إبراهيم فى فيلم «ريا وسكينة» فى ندائها «أهلاً يا شابة»، مرددة: إزيكو يا حلوين طلعوا كراسة الواجب.. ها.. مين ما عملش الواجب؟

وحينها تغوص القلوب فى الأقدام التى تركت مفاصلها وتنكمش الأبدان الصغيرة فى المرايل القصيرة وينتشر الهمس المرعوش عملت الواجب.. عملتِ الواجب.. أنا.. معملتش.. وتبدأ رحلة الحصاد وتجمع الكراسات وتنادى على الأسماء الموعودة.. فلان الفلانى.. اطلعولى على السبورة، افتح إيدك من سكات وخمس أو عشر خرزانات على الريق بالشفا وواحدة على جنبك وأنت ماشى علشان تحرم.

وهكذا يوميًا حتى تلاشى تقريبًا عدد الأنفار الذين لم يكتبوا الواجب ولم يتبق إلا ولد وبنت كانا يتصدران دائمًا صفوف المعاقبين على الرغم من ذكائهما ولكنهما كانا لا يكترثان لذلك.. وكذلك هى قواعد اللعبة، لا بد للخرزانة أن تنسحب من صفوف العاطلين وتؤدى واجبها، نحن أبناء البلدان النامية.

أما البنت فكانت شقراء جميلة، ممتلئة، مبتسمة.. تسمى هدى، لكن حظها سيئ كانت تستفتح بها دائمًا، وبعد أن أطلقت عليها لقب دبة.. تبدأ عملية التنفيض وهى تترنم: «حادبك يا دبة»، ثم تنتهى بالولد الذى كان يشعر بالعجز عن حمايته لأخته ويظل الاثنان يبكيان ويشهقان حتى تجف دموعهما.

تألمت من أجلهما وكنت أتساءل: لماذا لا يعملان الواجب ويريحا نفسيهما من هذا العذاب؟ هل اللعب أحب عندهما من أى شيء آخر.. وذات يوم قرر الولد أن يقف موقفًا بطوليًا مع أخته فاتفق معها أن تغيب يومًا لتستريح من الضرب على أن تخبر أمهما بأنها مريضة، وبالفعل غابت هى وحضر هو.. وما إن رأته وحيدًا حتى طاش صوابها ووجهت إليه سؤالها:

أختك فين؟

رد بثقة وفخر: فى البيت.

زنت الدبابير أمام عينيها: وطبعًا سيادتك ما عملتش الواجب؟

هز رأسه يأسًا.. فعزمت أمرها وقررت الإبداع هذه المرة، فسحبت إحدى التخت بعد أن طردت سكانها منها ولفته بحيث أصبحت منضدة التختة فى واجهتنا وانقضت على الولد النحيل فحبسته تحت المقعد كأنه فرخة فى عشة فأصبح محاصرًا بالقوائم الخشبية للمقعد وهو راكع على ركبتيه وانهالت عليه ضربًا بالخرزانة فى جميع أجزاء جسده.. وقد علا صراخه فى المكان فأطبقت يدها على فمه وقد استشاطت غضبًا ونفرت عروقها وأخذت تردد بجنون:

حاموتك.. حاموتك يا كلب يا أنا يا انت.. حتعمل الواجب يعنى حتعمله..

وكان أسوأ ما فى المشهد أن الولد ظل يرفس بكلتا قدميه وقد برزت عيناه واحتقن وجهه وتيقنا أن صاحبنا ميت لا محالة، والعجيب أننا لم نصرخ لإنقاذه ولم نبكِ، فالصراخ فى هذه اللحظة رفاهية، فمن

هول الحدث تجمدنا على كراسينا رعبًا وبكينا صمتًا.. حتى جاءت اللحظة الفاصلة ورفعت «غودزيلا» يدها عن الصغير قبل أن يموت بثانية واحدة فأخذ يتنفس بقوة يستجدى الهواء من حوله.. وراحت تنهج وهى تعدل من وضع إيشاربها الذى تراجع عن مقدمة شعرها الأبيض وعقدته بإحكام ثم تنفست بارتياح مكذوب وساد الفصلَ سكون جنائزى والصغير لا يتوقف دمعه.. وأخيرًا شق صوتها السكون: قوم يلَّا يا كلب على تختتك.

حصة الألعاب

الأيام كانت تتزحزح ولا تسير، وشيء فينا يتغير، خوف ينمو معنا وضحكات تتراجع.. فلم يفلح أى أحد مع مدرستنا، فأولياء الأمور اشتكوا و الرد دائما أنها مُدرسة أولى و ممتازة، والأولاد يستفيدون منها، وليس من المعقول أن نعاقب سيدة كبيرة فى سنها و«كلها كام سنة» وتخرج إلى المعاش.. وفى بداية كل يوم تتعلق عيوننا بالباب ننتظر دخول دادة فاطمة الفصل معها دفتر الغياب وهى تصفر لنا كالقطار حتى لو كان الأمر لا يستغرق إلا دقائق، لكنه يستحق الانتظار فعندما كانت تطل علينا بوجهها الأبيض الرائق وجلبابها المشجر الذى نتمنى أن نختبئ فى إحدى ورداته أو ننام تحت طرحتها الشيفون التى تضعها على رأسها من دون أن تلفها يظهر من تحتها منديل تعصب به رأسها من نفس لون الجلباب وتترك ضفائرها الرفيعة مطلة علينا تضحك لنا مثلها.. وفى يوم قررت دادة فاطمة أن تحول شفقتها علينا إلى فعل حقيقى فاستجمعت شجاعتها وقالت لأبلة نجية بأدب جم وخوف قليل:

صحيح يا أبلة، أبلة أمانى بتسأل حتنزلى الولاد حصة الألعاب امتى؟

فارتبكت قليلاً، ثم قالت فى تحدٍ: لما يبقوا مؤدبين.

ما هم مؤدبين وزى الفل أهم، نزليهم يا أبلة، الله يخليك.. والنبى ما تكسفينى.. والنبى..

نزلنا حوش المدرسة تتصدرنا دادة فاطمة منتصرة مرفوعة الرأس وتقابلنا مع أول من ابتسم لنا فى المدرسة، أبلة أمانى، ولأول مرة نحضر حصة الألعاب، كانت أمانى فى آواخر العشرينات متوسطة القوام قمحية البشرة شعرها أسود قصير للغاية، عيناها تضحك وشفتاها تبتسمان.

ووقفنا أمامها فى طابور يبدو على ملامحنا البؤس والانكسار، فتعجبت لنا كأننا بعثنا للتو من أوراق فيكتور هوجو فى البؤساء وقالت:

«فى إيه؟ مالكم يا أولاد، الفصل الوحيد إللى مجريش فى الحوش أول ما نزل حصة الألعاب، يلّا اجروا، فلم يتحرك أحد ، فكررتها ثانية، تجمدنا أكثر فتنهدت قائلة:

خلاص، أنا حلعب معاكم.. وأخذت تقذف لنا الكرة بعيدًا لنلحق بها وتسابقت معنا ، ومن لم يجرِ لهذا أو ذاك أخذت تزغزغة حتى يتزحزح.. لهونا وقفزنا فى الهواء وأمسكنا به ولم تدعنا أمانى حتى أعادتنا جميعًا عيالاً حقيقيين نضحك بجلجلة تعدى من يرانا، ومن تأثير الفرحة أخذنا نتسابق إلى الفصل و وصلة الضحك لم يقطعها إلا صيحة عرفناها:

فى إيه؟ إيه الصوت العالى ده؟ طب مفيش ألعاب تانى، اتكتموا..

و هكذا مر أول عامان فى تشابه كبير ..

دوائر هدى

و فى إجازة الصف الثانى والجميع يحاول سحب أكبر قدر من هواء الحرية الذى اشتاق إليه طوال العام، كانت هدى أكثر من ينتظر هذه الإجازة بفارغ الصبر لتستريح من علقة كل يوم وتتوقف عن القيام بدور دمية فش الغل فى حياة نجية.. فباقى تلاميذ الفصل حين يضربون يأتى ذووهم المدرسة محتجين مشجبين فتكف نجية عن الضرب يومين أو ثلاثة أو أسبوعًا.. أما هدى فأم مشغولة وأب مختفٍ فى بلد ما، فمن يتصدى لأجلها؟ فتعودت أن تكون ولية أمر نفسها، تبكى وحدها وتسكت وحدها وتطبطب على نفسها بعد كل علقة تسأل زملاءها وهى تضحك خجلاً.. معاكو سندوتشات إيه يا عيال النهارده؟

أما فريد أخوها فلم يقتنع بأن يقضى إجازته فى البيت، وأصر على أن يسافر عند أخواله فى الريف.

وتظل هدى فى البيت ترعى جدتها المسنة وتتحمل المسؤلية فى غياب أمها.. لكنها تعرف كيف تفرح وتفجر طاقات المرح داخلها تتزعم شلة من الصغار لتلعب معهم ، وإن لم تجدهم تلعب مع

دميتها تحاورها وتخاصمها ولا يكدر صفوها سوى صوت جدتها التى تناديها كل ربع ساعة لتطلب منها شيئًا ثم تعود للجرى و اللهو وينادى هذه المرة بائع الآيس كريم فتركض إليه فرحة وهى تلف بفستانها لتصنع دوائر فى الهواء حتى يدور رأسها، وفى نهاية اليوم تذهب لتنام بملابسها منهكة بعد أن استمتعت بيومها قدر استطاعتها.. وفى أحد الأيام استيقظت متأخرة على غير عادتها ورتبت فراشها سريعًا.. وأعدت الإفطار لجدتها، ولكنها لم تشاركها فيه لتلحق بأقرانها وتقدمت نحونا بوهن أرادت تجاهله، لكنه بدا جليًا فى حركتها، ولم نكن نعرف ما بها، لكنها لم تكن بحالة جيدة ولم تستطع المقاومة كثيرًا، فاستسلمت للجلوس مسندة ظهرها على الحائط تلتقط أنفاسها والصغار يستحثونها على معاودة الجرى وهى تصبرهم حتى تستريح.. ظلت متفرجة فى ذلك اليوم حتى مرت إحدى الجارات فتعجبت من جلستها على الرصيف وعيناها شبه مغلقتين وكانت تحب هدى كابنتها فقالت:

مالك يا هدى؟ مبتلعبيش معاهم ليه؟

رجلى بتوجعنى يا أبلة ليلى مش قادرة أدوس عليها..

نظرت السيدة للجزء المكشوف من ساق الفتاة فوجدته ملتهبًا بالفعل فرفعت الفستان عن باقى ساقها فإذا بالالتهاب أكثر حدة وبقع حمراء قانية تنتشر عليه ففزعت جست رأسها فوجدت حرارتها مرتفعة أخذتها من يدها إلى جدتها و نصحتها بألا تدعها تخرج اليوم وتضع رأسها تحت الماء البارد،

ولكن القلق لم يجعل ليلى تغادر المكان فما إن وصلت لباب الشقة حتى استدارت قائلة: أفضل شىء أعمل لها كمادات ثلج .. التى تتابعت على رأسها الصغير الذى لا يريد أن يبرد وأنينها المكتوم يزداد.. نفد الثلج من البيت وسرعان ما سمع الجيران بالأمر فسارعوا بإحضاره ، وطلبت منهم الجدة أن يتصلوا بعفاف والدة هدى وهى تصب عليها اللعنات:

«ستات آخر زمن، البنت مولعة نار وهى دايرة فى الأشغال».
وبعد محاولات مضنية هدأت الحرارة أخيرًا واستفاقت هدى قليلاً وجلست فى مكانها فسر الارتياح فى قلب الجدة، ولكنه لم يصل لليلى التى أصرت على اصطحاب هدى للطبيب، وما إن سمعت هدى كلمة طبيب حتى فتحت عينيها فى انتباه وصفقت براحتيها:

حنخرج يا أبلة؟

ابتسمت وهى تضمها لصدرها:

عايزة تخرجى؟

آه والنبى، أنا لو خرجت هاخف.

وراحت تبدل لها ملابسها المبتلة بأخرى فأشارت هدى للدولاب: لبسينى الفستان الأحمر.. وراحت تمنى نفسها بنزهة ليلية بعيدة عن حدود شارعها، فهى تنظر دائمًا للأمور بشكل مختلف.. وما زالت أتذكر حين غمزتنى بعينها فرحة وهى تكمل ارتداء حذائها على السلم بوهن.. فلم تسعفها أرجلها للوقوف فحملتها ليلى وزوجها حتى ووضعاها فى سيارتهما ماضين للطبيب.. وهناك لحقت بهم عفاف والقلق ينهشها.

تأخروا كثيرًا ولمَّ السكون بالمكان وأطفئت الأنوار إلا فى شقة هدى التى جلست جدتها تنتظرهم فى شرفتها ولم تكن وحدها فكنت أيضًا فى البيت أنتظر عودة صديقتى أغافل أمى كلما دعتنى للنوم، أقف فى نافذة غرفتى متكئة على سورها، وكلما أنامنى هواء الليل أيقظنى صوت عجلات عربة فأحسبها هدى.. حتى أفقت فى جوف

الليل على حركة غير طبيعية صاخبة وصوت بكاء محموم فنظرت للشارع فوجدت حشدًا من الناس.. يحملون جثمانًا مسترخيًا فى نوم عميق وبفستان منهزم على جسد صغير، لكن آثار الغمزة السعيدة لا تزال على الوجه الجميل..

قد تركت هدى ملعبنا بلا قائد ولم تخبرنى هل تكفى ابتسامتها تلك لى؟ ولكن الكبار يخبروننا بأنها تلهو فى مكان أرحب من شارعنا كثيرًا.. إذن هى سعيدة بعد أن تحررت روحها التى ضاقت بالجدران والأوامر الصارمة والعيون الناقمة على طفولتها وانتقلت لعوالم الفسح الأصلية التى لا تضيق بدوائرها.

حكت ليلى فيما بعد، أن هدى قبل وفاتها بدقيقة احتضنت أمها بقوة كأنها أرادت أن تحقق أمنية لديها فوقت عفاف لم يكن يتسع لتلك الضمّة .

وانتهت إجازة الصيف وعدنا للمدرسة من دونها وأحيانًا كان يهيأ لى أنها تنظر إلىَّ من نافذة الفصل أو تقف فى ركن عند السبورة تلملم شعيراتها الصفراء الثائرة وبيدها الأخرى ساندوتش.. ولم نعرف عن أخيها شيئًا سوى أنه قرر عدم الذهاب للمدرسة وفشلت كل

المحاولات لإقناعه.. يلوم الجميع على وفاة أخته وأولهم نجية التى كان عليها أن تواجه نظراتنا اللائمة ولكنها كانت تتحاشها ولا تفتح موضوع هدى حتى من باب الترحم عليها وعبرنا أول يومين فى الدراسة وأبلة نجية صامتة صمتًا غريبًا ترمقنا بعيون مكتومة لا ندرى هل هى حزينة على هدى أم نادمة على أنها لم تحبها كما ينبغى حتى تبددت حيرتنا ذات يوم عندما خرجت من الفصل أثناء الحصة حين استدعتها وكيلة المدرسة وغابت على غير عادتها فظننا أنها لن تعود وأنها رفدت من المدرسة ثأرًا لهدى ثم فوجئنا بها أمامنا وفوجئت هى بصخبنا والكراسات التى كانت تطير فى الهواء فى احتفالية مهيبة، فما كان منها إلا أن صرخت فينا صرخة هائلة تصدعت لها جدران الفصل وهى تقول:

إيه قلة الأدب دى يا غجر؟ إلهى تحصلوا هدى عن قريب.

حين غنى لنا عبد الحليم

وبعد مرور أسابيع فى السنة الجديدة حدث تغيير كبير لم نكن نتوقعه فى حياتنا المزنوقة، ففى يوم دخلت أبلة نجية الفصل زاغئة النظرات مكتئبة النفْس لا تنظر إلينا شزرًا كطبيعتها تحاول إخراج الكلمات بصعوبة، وأخيرًا ألقت إلينا بالنبأ:

«هناك مدرسات تدريب عملى.. سيدرسن لكم بدلاً منى.. لمدة أسبوعين فقط، وهما أبلة إيمان وأبلة سهام.. ستصعدان إلى الفصل بعد الفسحة».

نزلت علينا الكلمة كأذان الفجر لتائه فى الصحراء.

فسحة، حننزل فسحة غير معقول.. هيييييه..

قالت بيانها هذا ونزلت منكسة الرأس تجر قدميها.. والفرحة قد نثرت على وجوهنا كالحصبة ومجتمع الإشاعات الصغير بدأ فى إطلاق خيالاته وتضخيم الأمر، أبلة نجية ستترك المدرسة.

ورد أحدهم بانهزام.. لا تفرحوا، ستعود.

وآخر: لا، قالت إنها ستعمل عملية ولن تقدر على أن تمشى

على قدميها.

نظر الجميع بذهول، هذه الجملة الطويلة لم ترد فى الحوار ولم يسمعها أحد منا، ولكن الجميع أراد أن يصدق خياله فهتف ثالث:

صح، رأيتها تمسك ركبتها وهى تصعد السلم وانطلقت الهييه الثانية وعشنا فى فقاعة كبيرة من السعادة مرت الفسحة سريعًا وصعدت المدرستان.. سهام تبدو قوية تميل للقسوة من طراز نجية بعض الشىء، لكنها جميلة وأنيقة تدارى شدتها بالضحك، وإيمان كانت النموذج المثالى للتعامل مع أطفال رقيقة على وجهها ابتسامة صافية ممتدة من دون فواصل من التكشير، كلامها مقنع، فلا تحتاج إلى أن تصرخ لننصاع لأمرها، عرفتانا بنفسيهما وتعرفتا على أسمائنا التى حفظتها إيمان ولم تكترس لها سهام كثيرًا، كانتا بالنسبة لنا شيئًا جديدًا، شابتان صغيرتان بعيدتان تمامًا عن موطن الشيب، ويا للهول تضعان أحمر شفاه وتلبسان ساعتين نسائيتين رفيعتين مذهبتين نحملق إليهما غير مصدقين، وجهان جديدان غير الوجه الذى ألفناه منذ وعينا على التعليم، كانتا تشرحان الدروس بشكل مبسط تنادينا بأسمائنا، وأهم شىء أعطتانا حقنا الذى كفله لنا الدستور فى اللعب الذى شاركتانا فيه وتركتانا نعلق الزينة المفضضة والبلالين فى الفصل

مكافأة لنا.. لكن صدمة الحرية جعلت الفصل فى حالة هياج مما زاد من عصبية سهام فصرخت فينا جميعًا حتى من لم يرتكب ذنبًا.

فنزلت الفسحة فى ذلك اليوم وأنا أبكى، ورأتنى أبلة نجية من خلف السياج حين مررت أمام غرفة مكتبها وجاءت تسألنى: ما بك؟ ويا للعجب، لقد انهرت أمامها، أشكو إليها أبلة سهام كأننى أشكوها لنفسها، والأعجب أنها صعدت بعد الفسحة ونهرت المدرسة وحذرتها ألا تعاقب أحدنا، فهى هنا للتدريب وليس لمعاقبة التلاميذ، واعتبرت إهانة أى تلميذ هى إهانة شخصية لها.. ولكن بالطبع حق الإهانة مكفول لها هى فقط بالأقدمية.

أما إيمان فقد شاركتنا عالم البراءة التى كانت تنتمى هى إليه مثلنا، أرتنا صورًا وألوانًا فى الكتب كنا غفلناها وأحببنا المجىء إلى المدرسة ولم تعد توترنى أغنية «بالسلامة يا حبيبى» حين أسمعها صباحًا ولم نخف أو نبكِ لمدة أسبوعين.. وانتهت فترة التدريب كأى شىء ينتهى فى الحياة لأنه بدأ وفى آخر يوم جاءت إيمان لتودعنا، هى أحبتنا كأى إنسان طبيعى لا يملك إلا أن يحب الصغار ولم نقبل أن تتركنا بسهولة، بكى الفصل وخرجت مسرعة تجفف هى أيضا دموعها، لحقت بها وجريت خلفها حتى باب المدرسة، وللمرة الأخيرة

التفتت إلىَّ مبتسمة.. وذهبت.. أحسست بأن رداءً كان يدفئنى أطاحت به الريح من على كتفى، وبكيت أكثر مما أبكتنى نجية طوال الفترة الماضية، فالأمر مختلف، فقد عرفت نوعًا جديدًا من الدموع.. دققت الأرض بأقدامى احتجاجًا وأنا أجهش بالبكاء: أريد أبلة إيمان.

لا أعرف كيف توقفت عن البكاء فجأة، ولكننى سمعت الصوت ذاته من خلفى يفاجئنى كالعادة: أنت يا بنت، إيه اللى موقفك هنا؟ اطلعى فصلك.. فصعدت لا أدرى جريًا أم عومًا..

فى تلك اللحظة تسللت أغنية عبد الحليم من راديو عم فرج حارس المدرسة إلىَّ: «تانى تانى تانى راجعين للحيرة تانى للنار للعذاب من تانى». ولا أعرف لماذا جاءنى اعتقاد حينها أنه غناها خصيصا لفصل ٣/١.

الناقوس الناطق

لم تفلح أبلة نجية فى محاولاتها لتحرمنا من حصة الألعاب، فالأمر يخص مُدرِسة أخرى، ولكنها لم تستسلم فمنعتنا من الفسحة لمدة ثلاث سنوات متتالية، فحين ترانا لا تعرف من جاء المكان أولاً، نحن أم المكاتب التى نجلس عليها، لكن الله شاء أن يفتح لنا نافذة ضوء جديدة ففى إحدى حصص الألعاب مرت علينا سيدة جميلة ألقت التحية على أبلة أمانى بود ثم توقفت أمامنا بدهشة قائلة : لم أر هذه الوجوه من قبل ، و أثناء موعد الفسحة فوجئنا بها تطرق باب فصلنا وألقت التحية فرفع الجميع وجوههم إليها، وسألت أبلة نجية أن تسمح لنا بزيارة المكتبة، فردت عليها: «إننا متأخرين فى دروسنا، وعمومًا اسأليهم لو يحبوا الذهاب». فى ذلك الوقت كنا نقرأ بشكل جماعى وقطعت القراءة لحظة مجيئها ثم عاودنا مرة أخرى وتقدمت تسألنا بصوت واثق: أتريدون زيارة المكتبة يا أولاد؟

فواصلنا القراءة بطريقة آلية.. الفأر يقرض الشبكة.. الأسد يسخر من الفأر، فأعادت قولها ثانية فتشتت قراءتنا ولم تبق إلا

أصوات قليلة تردد .. والأسد ينظر للفأر..

لم نجرأ فى البداية على رفع أيدينا وترددنا كالعادة ولكن وجهها المبشر وتكرارها السؤال ويدها التى أخذت تمسح على بعض الرءوس وهى تمر بين الصفوف شجعنا فرفعنا أيدينا فرادى ثم جماعات وعين أبلة نجية تلتصق بالكراسات لا تقيمها منهمكة فيها كأن الأمر لا يعنيها، ولم ترسل لنا بأى رسائل تحريم كعادتها!! فهناك سر ما لا نفهمه..

كانت أبلة فوزية سيدة فى منتصف الأربعينات، ملامحها أنيقة وملابسها كذلك.. فى عينيها نظرة مضيئة تنقلك إلى الجانب الرحب من الحياة تُشعر كل منا بأنه الأفضل، سرنا وراءها فى هدوء غير إجبارى لا يسمع سوى صوت احتكاك أحذيتنا على الأرض، وكانت هى المرة الأولى التى نرى فيها المكتبة ،التى وقفنا أمامها مبهورين برحابتها وتنسيقها، وما هى إلا دقائق قليلة حتى اندفع الجمع نحو دواليبها وكل منهم عائد برزمة من القصص، وبدأ الصراع يشتعل على مجلات «سمير» و«ميكى» فى حين تسلق البعض النوافذ العثمانية العملاقة ليشاهدوا حديقة الفيلا التى تطل عليها المكتبة ويغيظوا الكلب المربوط فى بوابتها مهوهوين له فيرد عليهم بهوهوة غاضبة..

واتجه الآخرون للجرى فى حين جلس القليل منهمكًا فى قراءة الكتب والقصص غير عابئين بما يحدث حولهم محاطين بسكينة معطرة برائحة الحكايات، وكنت مع هؤلاء المسافرين وأبلة فوزية تنظر إلينا ولا تعلق ثم صفقت بيديها حتى انتبه الجميع وأشارت إلى جماعة القراء الصغار وأوقفتنا بجانبها ثم قالت: لحظة من فضلكم يا أولادى المكتبة هنا للقراءة والاطلاع وليس للعب والجرى، فمن احترم قواعد المكتبة سينتظر، والباقى يتفضل إلى فصله، ولكنها لن تكون آخر مرة تأتون فيها إلى هنا، ما زالت لديكم فرصة أخرى لتقرروا فى المرة القادمة هل سنحترم المكتبة أم نعود للفصل؟

وبقينا فى زهو غير مصدقين أننا كنا من الناجين ولن نعود إلى الفصل على الأقل الآن..

وفى لحظات آمنة وجدتنى فى ذلك المكان العجيب الذى شعرت به يتنفس وتأملته فى خشوع ذلك المحراب الملون بدواليبه المصطفة بالكتب ونوافذه العالية التى علقت على حوافها من الخارج أوانٍ بيضاء للزهور ومن الداخل أسدلت عليها ستائر بيضاء شفافة تنفذ منها الشمس بقدر وطاولات تتوسط المكان فى أناقة حولها كراسى صغيرة ومن السقف الشاهق تدلت نجفة عتيقة تلخص تاريخ

المكان. ونظرت حولى فلم أجد إلا التلاميذ الخمسة وأبلة فوزية بوجهها الفريد تتأملنا عن قرب من حينٍ لآخر وهى متكئة على ساعدها كأنها تحاول أن تتذكر شيئًا ما، وفى المرة الثانية حاول تلاميذ الفصل ونجح قليل فى أن يحافظ على هدوئه ولكن الباقين تململوا وكانت وجهة نظرهم:

لن نستطيع أن نأكل فى المكتبة، على الأقل أبلتنا لا تسمح لنا بالفسحة، لكنها تدعنا نأكل ورءوسنا فى الكتاب، وهكذا زهد أكثر الفصل فى الطريق إلى المكتبة واستقر عدد مرتاديها على نحو سبعة أو ثمانية تلاميذ.. وحينها فقط عرفت لماذا سكتت أبلة نجية عند ذهابنا للمكتبة، فمرجعية صمتها أننا لن نترك الكتب لنذهب لأخرى.. ولكنها لم تكن تعلم أن البعض قد وجد أخيرًا مفتاح حريته..

تألمت لباقى الزملاء، فلو كانوا صبروا قليلا فقد سمحت لنا أبلة فوزية بعشر دقائق كل يوم نأكل فيها ونلهو بهدوء فى الطرقة أمام المكتبة وتحررنا بعض الشيء وحصلنا أخيرًا على حقنا فى الفسحة وقضينا فى تلك المكتبة أروع لحظات عمرنا الغض، فكانت لنا كقوقعة اللؤلؤ التى نهرب إليها فرارًا من أسماك القرش.. تنسانا فيها حدة الدراسة وسافرنا إلى عوالم بعيدة وقرأنا فيها ما شكل وجداننا،

فأحداث الروايات والقصص لا تزال عالقة بذهنى كالرفيق المجهول.. والناقوس الناطق تلك الأسطورة العميقة التى تحكى عن فتاة كانت تعيش قديما فى الصين.. شرع أبوها بعمل ناقوس ضخم لإمبراطور الصين إذعانًا لأمره، وفى كل مرة كان ينتهى فيها الرجل من عمله تظهر فى الناقوس شروخ أو ثقوب، فغضب الإمبراطور من تكرار الخطأ وأصدر أوامره إن لم يحسن الحداد صناعته سيعدم أمام الجميع فخافت الابنة وراحت تسأل أحد الحكماء فى المدينة على كيفية نجاة والدها وكيف يخرج الناقوس بلا عيوب فأخبرها الحكيم بأن الناقوس لن يحسن صناعته سوى أن ترمى فى حديده المصهور فتاة صغيرة ولم يكن لديها الوقت لتفكر فقررت أن تضحى بنفسها لتنقذ أباها من الموت والذى فوجئ بها تلقى بنفسها فى الحديد المنصهر وسط دهشة الجميع أثناء الاحتفال بانتهاء الناقوس فجرى وراءها، لكنه لم يلحقها وأمسك فقط بفردة حذائها .. وكلما دق الناقوس نطق معه صوت يقول شياوو.. شياوو.. أى «أريد حذائى يا أبى»، .. هكذا لم تنته القصص عند طى صفحاتها الأخيرة، بل ظلت معى نابضة حية ذكرنى بها الآن شهداء ثورة يناير الذين ضحوا أيضًا بدمائهم ليسدوا شروخ وثقوب الوطن.. وفى نهاية العام الدراسى فوجئنا بأبلة فوزية

تأتى لفصلنا ومعها مجموعة كبيرة من الكتب تنظر إلينا بابتسامتها الوقور التى طالما اخترقت قلوبنا ببهجة لتكافئنا بمجموعة من القصص على أكثر الطلاب ارتيادا للمكتبة وأيضًا على من لم يرتدها وخصتنى بمجموعة قصصية من بينها «الناقوس الناطق» لعلمها بشغفى بها، والأهم من كل ذلك حديثها لنا وكلامها عن أحلامنا الصغيرة وإطراؤها الدائم وفخرها بنا.

وأردفت قائلة وهى تشد أطراف جاكيتها كمن تستنجد به ليساعدها على ما تريد قوله: يا رب يا أولادى تعجبكم هذه الكتب.. جئتكم بها لأنه آخر يوم لى فى المدرسة.. أنا مسافرة للخارج لابنتى التى كنت أراها فى وجوهكم الصغيرة كلما افتقدتها.. جئت أودعكم وأتمنى أن أراكم بخير عظماء وناجحين فى كل مجال.. أحبائى.. دائمًا أحبوا القراءة تحبكم الحياة.

لا أعرف لماذا يذهب النبلاء من هذه المدرسة ويبقى الآخرون.. ولم أبكِ هذه المرة وبخلت على دموعى ولكن قلبى هاجر من مكانه محتجًا وانزوى فى مكان لا أعرفه وتحول إلى كتلة مجمدة من الدموع ظهرت سحائبها فى عينى وخافت أن تنحدر فأصدق أن ما حدث كان حقيقيًا، ولكننى تيقنت حين اصطدمت عينى بوجه أبلة

بحية المحتقن من الكلمات الرقيقة التى سمعتها معنا للتو وتداركت انفعالها قائلة : والله حتوحشينا أوى.. وصوبت لنا ناظريها مش كده ولا إيه يا أولاد؟ يلا قوموا سلموا على أبلتكم.. تقولها الآن فقط.. برضاء بالغ.. بعد أن أصبح الأمر من عائلة كان.. والتف الفصل حول أبلة فوزية فى دوائر حميمية يتناوبون مصافحتها ويشدون قامتهم يقبلونها هاتفين : حتوحشينا يا أبلة.. حتوحشينا... أما أنا فلم أقلها ولكن هديرًا داخلى كان يهزنى بصمت.. فلن أنسى هذا الوجه صاحب الفضل فى ترميم أرواحنا وعقولنا وهذه العيون التى وسعتنا حبًا.. سأهدى إليك كل كتاب أقرأه.. وفى كل صفحة أقلبها سأدعو لك أن تبقى سعيدة سواء كنت تعيشين معنا فى الأرض أو تسكنين السماء.. وما زلت أمسك بحواف طاولتى كما أمسك بدموعى بحرص ألا تتفلت منى فنظرت هى إلىَّ وخطت إلىَّ خطوتين فأصبحت أمامى مباشرة وانحنت برقة قائلة وهى تبتسم:

مش عايزة تسلمى عليه.. فمددت يدى فى الهواء بغير اتجاه فلم تمد يدها، ولكنها أحاطت خدى براحتيها العطرة ومالت على رأسى وطبعت فوق غرتى قبلة رقيقة فارتجفت، كأن أميرة خرجت من كتب الحكايات ونثرت علىَّ من سحرها.. ولم أعد أستطيع التحكم

فى تلك الدموع العنيدة والطيبة فارتميت فى أحضانها وطوقتها بذراعىَّ الصغيرتين بقوة وعلا نشيجى وداخلى صراع بين رغبتى الشديدة فى البكاء وخجلى من تلك الدموع التى يشاهدها الجميع.. ولم تتركنى حتى هدأت قليلاً وأبعدتنى بحنو ناظرة لعينى:

«البنات الحلوين ما يعيطوش.. وبعدين لو فضلتى تعيطى عنيكى الحلوة دى حتتعب ومش حتعرفى تقرئى القصص اللى جبتهالك». وما إن سمعت ذلك حتى أخذت أمسح عينى بقوة كى أثبت لها أنى سأقرأ الكتب.. كل الكتب.. أعدك.

رمضان حبيبى

فى ذلك الوقت لم تكن الألعاب الإلكترونية لها وجود إلا فى نطاق ضيق، فكنا نحن اللعبة واللاعب، فنحن من نجرى ونلهث ونتوقف ثم نعود مرة أخرى ، وكان أحلى شىء اقتناء فانوس رمضان الذى جمع لنا الحقيقة والخيال.. فالخيال عندما كنا نرى فى زجاجه الملون عوالم ليست على الأرض، حوريات.. ومراجيح.. أولياء بلحى بيضاء منيرة وصائمين يفطرون معنا لكن داخل الفانوس. أما الحقيقة التى توقظنا من كل ذلك هى لسعة يده الحديدية حين تسخنها الشمعة بداخله فنلقى به على الأرض سريعًا.

فأسطورة رمضان التى تأتى كل عام نسمة من البهجة تعبئ الدنيا فى عطر فريد تحت اسم «صنع فى رمضان» فتختلف خطوة الأيام فى سيرها وتتحول السماء لقبة خضراء كبيرة، فكل ما حولك زاهٍ وملون، حتى الزينة التى صنعها الصبية من ورق الجرائد كنا نراها بالألوان فكأن رمضان يمتلك أكبر علبة ألوان فى الوجود.. فصيامه لا يثنينا الكبار عنه أو تغرينا أطايب الطعام لتركه، فالمساواة هى طابع الحسن لذلك الشهر الجميل.. كذلك لهونا وصراخنا لم يجد من

يعترض عليه.. فنحن جزء منه وهرجنا يؤكد مجىء الشهر الكريم ويرحب به.. وعندما يمتلك الليل زمام الأمور كنا نسرع للبيوت لا للنوم ولكن حتى لا تفوتنا مشاهدة «ألف ليلة وليلة»، فعشاء الصغار المفضل هو الحواديت والنوم فى رمضان ليس بفريضة.

فى ذلك الوقت كان الشهر يأتى فى الصيف ولو صادف وقت الدراسة فاليوم قصير يمر سريعًا.. وأبلة نجية لا أحمل فى ذاكرتى أى شىء عنها حقًا.. كأنها تتلاشى..

وما زال رمضان يأتى بقبته وألوانه.. لكن هل أصبحت أرواحنا قادرة الآن على جعل المنغصات تتلاشى كما تجاوزناها ونحن صغار؟ فما أعذب روح الطفولة.

دولاب على المعاش

ذلك الكيان الخشبي القديم والملتصق بالحائط فى نهاية الفصل كان التقاط أنفاس لنا و لغزًا محيرًا فى الوقت نفسه تذهب إليه أبلتنا من حين إلى آخر تدس رأسها فيه ، فمحظور أن نقف على مسافة قريبة منه ولو من باب التذنيب.. به متناقضات كثيرة كأى شيء فى العالم يسافر خيالنا معه لاكتشاف دواخله.. فمن سكان ذلك الدولاب «عزيزة»، وهى عصا مبرومة من خشب الزان متوسطة الطول، لكنها شديدة الإيلام، وهناك أيضًا تسكن كراسات مجلدة بجلاد أحمر تستخدم لتحضير الدروس بالإضافة إلى عائلة من الأقلام الحمراء الفرنساوى متكبرة بخط متعجرف دائمًا ما يقول «غلط يا غبي»، كما تقطن فيه عدد من التفاحات كل يوم تذهب واحدة منهن لمعدة أبلة نجية بلا عودة ولكن أغرب هؤلاء السكان كانت مجموعة من السمكات المشوية ولكنها لم تظهر لها أى رائحة على الإطلاق فهل سياسة كتم الأنفاس ألمت بهن إيضا؟

وتتعلق العيون وتلوح الرقاب للخلف كلما ذهبت إليه ماذا ستخرج اليوم؟ فإن كان أكلاً تفاءلنا، سنأكل ونأخذ هدنة، وإن

كانت أقلامًا فنهارنا أحمر، وإن كانت «عزيزة» فالمشهد سيتحول من نهار خارجى إلى ليل كحلى، والدولاب مستسلم يفتح أبوابه لها كعجوز فقد حماسه للحياة.. حتى كان فى يوم فتحت فيه الدولاب ثم سمعت صوت المديرة غاضبًا يقترب من الفصل وهو يزداد علوًا فهرولت تستكشف الأمر وردت باب الدولاب من غير أن تحكم إغلاقه بالقفل، وبدأت الهمهمة وارتحلت العيون إلى الخلف، وعادت الإشاعات لموطنها الأصيل فقال أحدهم: إننى أرى ولدًا صغيرًا محبوسًا فى الدولاب فبهت البعض وكذب الآخرون حتى قفز أحدهم فجأة كأن شيئًا قرصه وقال: سأذهب لألقى نظرة سريعة، وتحرك نحو الدولاب فى فخر و تيه وسط إعجاب الجميع ووقف أمام الباب مضيقًا عينيه والجميع يقول: هاه.

لا أرى شيئًا.

فمد يد مرتعشة ليزيد من فتحة الدولاب ثم شهق بعدها شهقة لا نعرف هل رأى فيه شيئًا عجيبًا أدهشه لهذا الحد أم هو تأثير لسعة عصا أبلة نجية التى فاجأته من الخلف بضربة قوية وهو متلبس بفتحه..

ليس كل ما يتكلم إنسانًا

كان يقال إنه منزل لأحد أفراد الأسر الخديوية وخصص بعد ذلك ليكون مقرًا للتأمين الصحى، كانت تلك الفيلا العتيقة مرتعًا لخيال الطفولة فهى تشبه فيلا ليلى مراد فى فيلم «ليلى بنت الريف» وتخيلتها أحيانًا فيلا المغامرين الخمسة، واعتقدت دائمًا أن تختخ سيخرج من إحدى حجراتها يومًا ليقابلنى وانضم لفريقه، كانت تحيط بها النوافذ الشاهقة وأشعة الشمس تدخلها بجسارة تصافح بعضها فى اشتياق وسقفها المرسوم عليه نقوش دقيقة لم تذهب ألوانها بعد وأبوابها الواسعة بدفتين كابتسامة ودود من مضيف كريم، فكنا نقصدها لاستخراج الشهادات المرضية، وكنت أحيانًا أختلق الأمراض لأذهب إليها، وفى الغالب تكون الزيارات فى الشتاء، حيث نزلات البرد الممتدة وتضخم اللوز، وفى الشتاء أيضًا كانت تزداد غموضًا وجمالاً كسيدة أرستقراطية تنسدل قبعتها على عينيها فتخبئ فيهما ما تشاء، وذات مرة كانت لدىَّ رغبة عارمة فى أن أتحدث مع حوائطها وأحسست بأنها تبادلنى الرغبة فشدتنى نافذة كسر جزء من خشبها فبدت لى كفتاة تبكى بعين مصابة خاطبتها بهمس وكدت أسمع

صوتها وهيئ لى أنها تبتسم.. فابتسمت لها ثم انتبهت على صوت صغير متتطفل يقول لأمه «البنت دى بتكلم الشباك» ولفت الأنظار إلىّ مما أصابنى بالخجل فحدثت نفسى ليس كل من تحاوره إنسان فممكن أن تقرأ تاريخا على حائط .. وانتهت الدراسة ولم ينته الحديث بعد.. وبعد سنوات مررت من أمام المدرسة وتذكرت المكان و استيقظ لدى شيء من الحنين فأحببت أن أطوف بها.. فلم أجدها، بل لم أجد الشارع نفسه، تعجبت تختفى الفيلا نعم، لكن كيف يختفى الشارع! أليست هذه مدرستى القديمة وخلفها بشارعين يقبع المقر ، تنبهت أخيرًا إلى مبنى إدارى ضخم لإحدى الشركات بواجهة زجاجية خرساء اقتطع نصف الشارع ونصفه الآخر خصص جراج للسيارات.. حقًا يجب أن نخبئ السيارات الفاخرة فى جراجات ضخمة من أعين الحساد حتى لو هدمت الأهرامات نفسها وليس مجرد بيت يحدث زائريه!!

مساحة بيضاء

كل إنسان يختلف يومه ما بين صباح طيب وليل مَلول، وتتأرجح نفسه ما بين تسامح وعناد ومنع وعطاء، لكن لا يوجد من يخلو قلبه من اللون الأبيض مهما تزاحمت فيه الألوان الأخرى، وكذلك قلب أبلة نجية، فرغم قسوتها والابتسامة التى حرّمتها على وجهها فإنها كانت لها بعض اللمسات الإنسانية، فما زلت أذكر ذلك اليوم حين فاجأنى ألم فى أمعائى أثناء اليوم الدراسى وكانت ذات عين ثاقبة فحين تنظر إلينا تعرف المريض من المتمارض فثبتت نظراتها علىّ لبرهة كأنها تتكلم إلى شخص آخر:

«لمى كتبك علشان تروحى». ففعلت، وعندما هممت بالمغادرة فوجئت بها تأتى خلفى وتنزل معى درجات السلم، فقلت فى نفسى ستوصلنى لباب المدرسة وتنبه على الفراش أن يوصلنى أمام البيت تحديدًا، ولكنها تعدت البواب وأشارت إليه فقط أن يفتح لنا وخرجت معى ومضت خطوتين فرفعت رأسى إليها:

شكرًا يا أبلة، أنا أعرف أروح لوحدى، وبالفعل المدرسة كانت قريبة جدًا من البيت ليس علىَّ سوى أن أعبر الطريق، فلم ترد علىَّ،

ولكنها أمسكت يدى بحرص وعبرنا الطريق إلى الجهة الأخرى، وعند مقدمة شارعنا لاح لنا البيت فكررت شكرى لها، وعندها أرسلت يدى وتركتنى .. مشيت وفى منتصف الطريق ألتفت خلفى فوجدتها لا تزال فى مكانها.. ولم تمشِ حتى دخلت من بوابة البيت.. وكلما تذكرت تلك الواقعة أتساءل: لماذا فعلت ذلك؟ هل هى المسئولية؟ كان بإمكانها أن تتصل بأمى أو تكلنى لفراش المدرسة وهو دائما ما يوصل التلاميذ.. أما أنها المساحة البيضاء من قلبها التى اتسعت لى فى ذلك اليوم، أيًا ما كانت الأسباب فهو شىء حسن.. وما زلت أذكره..

آخر سنة

وصلنا إلى الصف الخامس الابتدائى بعقل ونفْس يتعديان سنوات عمرنا، صحيح تعلمنا تعليمًا جيدًا على يد أبلة نجية حتى إننا كنا نقرأ شعر شوقى ونحن فى الصف الثالث الابتدائى من دون تعتعة، لكننا على رأى جملة التونسى الشهيرة فى الثورة «لقد هرمنا».. وانقسمنا فريقين، الأول لا يستطيع فعل شىء سوى المذاكرة، والآخر يفعل كل شىء ما عدا المذاكرة، وفى تلك السنة كانت هناك مفاجأة سارة فى انتظارنا فقد ألغى الصف السادس الابتدائى وأصبحنا فى الصف الخامس والأخير.

وقبضة نجية انحسرت عن رقابنا، فلم تعد تدرس لنا سوى العربى.. وعلمتنا أيضًا سنوات الدراسة طرقًا لتفادى حنقها علينا فبادرنا بجلب الهدايا لها، التى كانت تحبها وتلمع عيناها فرحًا بها كطفل صغير، فكنا نهاديها بالإيشاربات والعطور فى عيد الأم، وبالكركديه والبلح فى رمضان، وكان تأثير الهدايا يأخذ فترة ثم يتبخر على حسب قوة كل هدية، ونصبر بانتظار المناسبات وإعطاء الهدايا حتى انقلبت الموازين فجأة وقامت حرب الخليج! طبعًا السؤال الآن:

ما علاقة خامسة أول بحرب العراق والكويت؟ لقد أثر علينا صدام، سامحه الله، رغم بعد المسافات فحين شن حربه على الكويت نزح الكثير من المواطنين الكويتيين على بلدنا وبالتالى على مدرستنا وعلى ١/٥ وجاءنا حمد وأخته الصغيرة عليا ضيفين كريمين فقلب حمد قواعد الفصل وموازين الهدايا المتعارف عليها وكاد يقلب ما تبقى من النظام الاشتراكى فى البلد، فقد صدم الجميع حينما أحضر أولى هداياه لأبلة نجية خاتمًا من الذهب.

ففى يوم جاءت والدة حمد ترتدى أزياء سينمائية و حذاءً ذا كعب رفيع أقامت طرقعته رءوسنا من الكتب تضع عطرًا بقى أثره فى فصلنا أيامًا.. حيت أبلتنا بابتسامة واسعة شدت على يدها وقالت بلكنة مزجت بين المصرية والخليجية:

«لا أوصيكى يا أبلة نجية على حمد، امتحانات نصف العام اجتربت وأنا أريده أن يحافظ على مستواه»، وخفضت صوتها قليلاً وهى تميل عليها وتخرج من حقيبتها علبة صغيرة أنيقة:

«تفضلي، هذا شيء بسيط». وتسمرت المدرسة فى مكانها بعد أن فتحت العلبة ثم نظرت الى السيدة مشدوهة:

لكن..

«لكن ماذا؟ لا تجولى شى، الذهب يرخص لك يا الغالية، أنت تستحجين كل خير». ورنت كلمة الذهب فى آذاننا كما يرن المعدن على البلاط، وأصبحت أبلة نجية مأخوذة بفعل الهدية لفترة طويلة تمشى ورقبتها ملووحة للخلف حتى لا تغفل عن حمد ثانية واحدة خشية أن يسأل على شيء دون أن تنتبه له، وهكذا صارت نجية منبهرة ومندهشة، وهكذا صار حمد الفتى المدلل للفصل بما يجلبه من برفانات فاخرة وإيشاربات حرير وخواتم ذهب.

انتهت الحرب والسنة الدراسية وتخرجنا فى مدرستنا الابتدائية ولا نعرف ماذا حدث لحمد، هل عاد إلى وطنه الكويت كما كان يجب أن يغنى دائمًا فى طابور الصباح وطنى الكويت عالى المجد.. وبيتى وبيقول ده بيته.. عمومًا هو لم يشعر يومًا بأنه ليس فى بيته بعكس آخرين يظلون مستأجرين لأوطانهم تغيمهم سحائب الغربة رغم أن شمسها قد حفظت وجوههم.

مضت تلك السنوات المبكرة والمؤثرة وعلمتنى أشياء مهمة، فإذا فُتِح لك باب فادلف منه حتى لو كنت تراه ضيقًا فهو خير من

أن تظل واقفًا على قدم واحدة.. ولعلك تجد فى الخارج حكيمًا يعالج لك قدمك الأخرى فتقف على أقدام ثابتة أو يعلمك الطيران و الغوص، كما جعلتنا أبلة فوزية نحلق مع الكتب، فلا شيء يذهب رعشة خوفك ويقنعك بقدرتك ويصلك إلى أعلى سماء مثل الكتاب، فإذا كان المثل يقول «الصبر مفتاح الفرج»، فالعلم هو الفرج نفسه، فوسط كتاب ما ستجد حتمًا طريقك أو طبيبك، فقط انظر إليه كنوع من أنواع السعادة التى منحها الله إيانا على الأرض.. حتى لو جعلوك قديمًا تكره رائحته الممزوجة بالقلم الرصاص.. فاقرأ واقترب، امنح نفسك فرصة لتجلس معه وتعرف منه، ودعه بثقة يصنع منك أصلاً من أصول الحياة كالورد والماء والنور.

وإذا كانت المقولة تشير إلى أن التعليم يحمى الحرية أفضل من جيشٍ مرابط (إدوارد إفرت)[1] فمن يحمى التعليم من جمود وسائله ورجعية القائمين عليه؟ فليس المقصود فى المشاهد السابقة لوم شخصية بعينها، ولكن كل من جعل من مدارسنا كابوسًا ثقيلاً يجثم على صدورنا ننتظر نهايته بفارغ الصبر.. فمتى تصبح المدرسة بيتًا

---

[1] – شغل إدوارد ايفرت عدة مناصب منها رئيسا لجامعة هارفارد و وزيرا للخارجية

مثاليًا للطفل يعيش فيها سنوات مميزة من الإبداع والسعادة؟ قد يأتى ذلك الوقت فقط عندما يتحول فيه المعلم إلى رسول حقيقى يترك بصمته داخل قلوب وعقول تابعيه تلك الكائنات الصغيرة.. الذكية.. والشفافة.. لسلك أفضل طريق إلى السبورة.